على هامش معالم التقريب *

العدالة والمساواة

مما لا مراء فيه، أن الحياة العصرية اختزلت واجبات الإنسان - بما هو إنسان - اختزالا شديداً .. ومن الطبيعي أن يصاحب هذا الاختزال بالضرورة - تقلص في الشعور بالواجب والمسئولية، وهبوط قيمة هذا الشعور في جدول القيم التي صار يهتم بها إنسان العصر .

وهنا يتوقف محمد عبد الله محمد ليلاحظ أنه لم يعوض هذا الانكماش في الضمير والروح، ومن ثم سطحية في العواطف والإحساس - لم يعوضه زيادة الواجبات العامة والالتزامات الصريبية والإدارية والوطنية المفروضة على الأفراد تجاه الدولة . وقد يقال إن هذا شيء لا بد منه لاستمتاع إنسان العصر بمزايا ما يقذف به الإنتاج الكبير من سلع وخدمات وما يوفره من رخاء مادي هائل قدمه العلم الحديث والتكنولوجيا المبنية عليه . ولكن التحدي المقابل يثير سؤالا بالغ الأهمية، هو كيف يمكن للإنسان أن يحتفظ بهذه المزايا إذا كان منطقها يستتبع باستمرار انكماش ضميره وروحه وتقلص شعوره بالواجب والمسئولية ؟!

إن اختزال الواجبات على هذا النحو، من أجل هذه الأغراض، يأباه الدين ويرفضه .. فالدين لا يتصور الحياة خالية من تبادل الواجبات والتساند والتعاون والتآخي في حمل التبعات

* العالم ٢٠١١/٢/٢٣

والمسئوليات . ومن الملحوظ أن الإسلام لم يتخل عن هذا الواجب ولو كان حتى من أجل التجرد للنسك والعبادة والترقى الروحى .

فلو شاع ذلك بين الناس وتحاكوا فيه، لتعطلت عمارة الحياة، وتخلخل المجتمع .. بينما هم الإسلام إعمار الحياة العامة والخاصة، بترابط إنسانى عماده التعاون والتراحم وتساند الناس فى خطوات ترقيهم وتخلقهم على هذه الأرض بأخلاق الله .

هذه الحياة بمقاصدها، لا تقام إلا إذا تحققت المساواة التى تقوم على العدل الذى لابد من توفير مناخه .. ومناخ العدل، فيما دل عليه القرآن والسنة، فى محبة الشجاعة فى الحق، وعدم السكوت أو الصبر على الظلم، والعزوف عن الباطل .. وهذه الشجاعة التى يحرص عليها الإسلام - تربية وخبرة ومران وتدريب وفهم .. وكثيرا ما يتوهم البعض وجود هذه الشجاعة فى أنفسهم وهم فى الواقع أبعد البعداء عنها وأضعف الناس عن تحمل تبعاتها حين يأتى الداعى إليها !

والواقع أن الدول لم تعد تهتم كثيرا فى هذا العصر - بإنتاج الشجاعة الأدبية والرجولة فى الحق .. وليس يجزئ فى إغفال هذا الجانب، أن تعنى الحكومات والشعوب بإنتاج الخبراء فى العلوم والصناعات والفنانين والأدباء وأرباب المهن والحرف، أو بناء الكوادر الحزبية والشبابية، وأبطال الرياضة، وإقامة وتدريب الجيوش والأساطيل والقوات الشرطية وتنمية قدراتها النظامية والقتالية .. فذلك كله على أهميته يبقى ناقصًا إذا أغفل إنتاج صفة الشجاعة والرجولة، أو إذا ترك توفر هذه الصفة لعشوائيات الظروف التى قد تنتجها اعتباطا وقد لا تنتجها !!

ويبدو أن القوالب الناعمة التى صارت تصب فيها حياة الناس، لم تعد تشعر بالحاجة إلى الشجاعة والرجولة .. وتتصور أن الإنسان

العادى يمكنه أن يعيش ويموت ويؤدى دوره فى الحياة بدونهما .. وهذا موطن من مواطن الداء .. يؤدى إلى اعتلال الحياة العامة .

ونحن حينما نتحدث عن المساواة كمقوم أساسى للمجتمع، ومعلم من معالم التقريب .. ينبغى أن نتذكر حديثنا عن الحريات بصفة عامة، وأن ندرك أنها تتوقف طرديا وعكسيا - على ثقة الضعفاء فى أمانة واستقامة ضمائر وسلوك الأقوياء .. فإحلال الأقوياء بالاستقامة واستخفافهم بالأمانة - لا يبقى معه جدوى كبيرة من التشريعات والأنظمة مهما نصت على المساواة .. ولا يجدى معه إنفاق الأموال الكثيرة أو الهبات والمنح لتحقيق المساواة، وتذهب سدًى كل محاولات الإقناع أن المساواة فى سبيلها للتحقق .

كذلك فإن اختصار القضية فى إزالة الأقوياء، تصور أو خيال شارد فارغ قليل العقل والتجربة .. فمن يزيل الأقوياء يرثهم ويمثل محلهم، وهكذا حكايات الفتوّات الذين يهبّون لإزالة الفتوّة الذى بغى وتجبر وظلم، ويتوسل المناهض فى مناهضته إلى قيم العدل والمساواة، حتى إذا هزمه وارتقى فتوّة الحارة أو الحىّ، تحول تدريجيًا إلى فتوّة آخر، لا يلبث أن يجمع مقاليد القوة ومعها الظلم فى يده، ليمارس بطشه على الناس، معطياً ظهره لكل قيم العدالة والمساواة التى تبناها وتشدق بها أيام كان يناهض الفتوّة السابق عليه !!!

يضاعف صعوبة تحقيق المساواة، أن العالم لم يستغن فى الماضى والحاضر ولا يمكن أن يستغنى فى المستقبل - عن وجود الضعفاء والأقوياء ..ولا عن حاجة المجتمعات إلى الأقوياء الذين يبدو أن الاستعناء التام عنهم مضاد لنواميس وواقع الحياة ..

وحكمة الإسلام أنه لم يتوهم إمكان خرق سنن الوجود، أو قلب موازين الكون، ولكنه مع ذلك لم يقف عاجزا عن معالجة هذه

القضية .. تكمن قوة الإسلام فى أنه يقظة وصبر وإعادة تربية للنفس والروح .. هذه التربية هى التى تقوّم القوى كما تداوى الضعيف، وتكفل تطامن القوة وتعافيها من البغى والظلم والجبروت، وتقيم للمجتمع أواصر وضوابط لا تتيح للقوى أن يتحبر ويستعلى بقوته على الضعفاء، وتلزمه بأن تكون قوته فى خدمة المجتمع .. وأن تكون الثروة فى جبر وكفكفة الفقر .. وأن يكون علم العالم فى تعليم الجاهل وصلاح الجماعة .. فى فرض المبادئ التى لا تفرق ولا تميّز بين الناس لقوة أو منصب أو جاه أو مال أو نفوذ .. عقرية الإسلام، ومعلم أساسى من معالم التقريب فيه، أنه لم ينكر أو يتجاهل وجود القوة والأقوياء، فأقر بواقع الاختلاف والتفاوت، ولكنه جعل القوة والعلم والثروة فى خدمة المجتمع والناس على سس العدل والإنصاف، فى إطار من الأخوة الإنسانية والمساواة، التى لا تفاضل فيها إلا بالعمل الصالح